

نظرية الحجاج من المقاربة المنطقية إلى المقاربة اللسانية

The Argumentation Theory from Logical Approach to Linguistic Approach

د. بوقمرة عمر

أستاذ محاضر قسم "أ"

قسم اللغة العربية، كلية الأدب والفنون، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

DR.BOUQUEMRA@gmail.com

ملخص

يجتهد هذا البحث في تتبع المراحل التطورية التي قطعتها النظرية الحجاجية الغربية، بداية من مرحلة النشأة مع السفسطائيين، إلى مرحلة النضج مع أرسطو، فمرحلة الضعف و الانحطاط منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى منتصف القرن العشرين، وصولاً إلى مرحلة التجديد التي بدأت بظهور كتاب "البلاغة الجديدة" للفيلسوف البلجيكي "شايم بيرلمان" وزميلته "أولبريشت تيتيكا" عام 1958م، وفي العام نفسه ظهر كتاب لـ "ستيفن تولمين" بعنوان "استعمالات الحجاج"، وتوالت البحوث في هذا الاتجاه مع ميشال ميير وآخرين، وكلها تدور حول منطق أرسطو، حتى ظهرت نظرية الحجاج في اللغة لـ "أزفالد ديكرود" عام 1973م، وهي تتعارض مع التصورات الحجاجية للبلاغة الأرسطية، أو البلاغة الجديدة لبيرلمان ومن معه، إنها نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وإمكاناتها الطبيعية بعيداً عن المنطق وصرامته.

الكلمات الدالة: الحجاج، البلاغة، المنطق، السفسطة، اللغة.

Abstract

This research strives to observe the evolutionary periods that made the western argumentation theory; the first period with sophists, the perfection period with **Aristotle**, the period of weakness and decadence since the fall of the roman empire to the mid-twentieth century, starting to the renewal phase, which began the appearance of the book " new Rhetoric " for Belgian philosopher " **Chaim Perlman** "and his colleague" Olbrechts-Tyteca" in 1958. And in the same year appeared the book of" Stephen Toulmin, which was titled "uses of argumentation ", rolled researchs in this direction with **Michel Meyer** and others, all of which revolve around the logic of Aristotle, Even emergence the argumentation theory in the language for " **Oswald Ducrot** " 1973, which is incompatible with the Aristotelian concepts about argumentation and eloquence, or the new rhetoric of Perelman and those with him. It is a lingual theory that studies language means and its natural abilities, but without dealing with logic and its rigor.

Keywords: Argumentation, Rhetoric, Logic, Sophistry, Language.

هواه، وواضح أن السفسطائي حين يسبغ على نفسه هذا الوصف أنه يدعي لنفسه بلوغ مرتبة الحكمة. أما الفيلسوف فقد كان حريصا على إضافة السابقة PHILO والتي تعني المحبة، وذلك دلالة منه على روح التواضع، وتجسيدها لجوهر الفلسفة ولبها المتمثل في البحث الدائم عن الحقيقة، والاقتراب منها دون الوصول إلى حد التطابق معها أبدا.

ولاشك أن ظهور المدعي (الحكيم) والمحب (الفيلسوف) على صعيد واحد يرجح كفة الثاني على الأول، فالناس عامة لا يؤمنون بما يدعيه الإنسان لنفسه حتى وإن كان متصفا به⁽²⁾ (رشيد الراضي، 2010، ص 12)؛ هذا من الناحية اللغوية. أما من الناحية الاصطلاحية فهي "تيار فكري ظهر في العالم الإغريقي وقوي بأثينا في القرن الخامس قبل الميلاد بالخصوص كما ذكرنا، والصفة "سوفيستاس" (SOPHISTES) كانت تعني في الأصل لقب تقدير، ومعناها الاشتقاقي الحكيم والرجل ذو الكفاءة المتميزة في كل شيء، فبروميتي PROMETHEE - وهو من هو في الأسطورة القديمة - كان يلقب بالسفسطائي"⁽³⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 54)، ويمكن تلخيص أهم أفكارها فيما يلي:

1) رفعت معيار "الإنسان مقياس كل شيء" وولت ظهرها لكل القيم الموضوعية، والمعايير الثابتة سواء ما تعلق منها بالفكر والاعتقاد أو السلوك والأخلاق، فالحقيقة عندهم ما يراه الفرد حقيقة، والفضيلة ما يبدو له فضيلة، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الأمور من آداب وأخلاق وغيرها، وبعبارة أخرى السفسطائيون يؤمنون بنسبية الحقيقة ومن ثم تغيرها من فرد لآخر، ومن مجتمع لآخر⁽⁴⁾ (رشيد الراضي، 2010، ص 14-13)، إنه تحويل للاهتمام من الطبيعة إلى الإنسان ومن الموضوعية إلى الذاتية.

2) ولتحقيق هذا الغرض ركبوا وسيلة اللغة فعنوا "ببنية كل من الكلمة والجملته، وبحثوا في السبل الممكنة التي بها يتحقق الإقناع وتغيير مواقف الآخرين، وقد استعانوا في سبيل تحقيق تلك الغاية بخبرة بالغة في مقامات الناس والقول معا، وأيضا بآليات إجراء اللغة بحسب المقاصد والظروف التواصلية".⁽⁵⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص 25)، وقد أدى هذا الصنيع دورا فاعلا في تطوير البلاغة القولية بصفة خاصة، والحياة الفكرية الإغريقية بصفة عامة، إذ كانوا يعقدون محاورات فلسفية ذات منزع لغوي توليدي للأفكار "الأمر الذي أسفر عن اهتمام بالغ بالطرائق الحجاجية والإقناعية من ناحية، وأدى إلى تراكم معرفي كبير شكّل النواة لمعظم الدراسات القديمة والحديثة للفلسفة اليونانية من ناحية ثانية"⁽⁶⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص 24).

3) استندت ممارستهم للحجاج إلى تصورهم "للنفع"، ولم يعلقوا النافع "بالخير" بل علقوه "باللذة"، وحسب ما ذكره أفلاطون "لذة الاستهواء بالنسبة إلى المقول إليه، ولذة النفع

إن المتفحص للجهود الغربية القديمة التي يمكن أن تكون روافد حقيقية ومهمة للحجاج؛ ليجد ثراء يعسر عليه الإحاطة بكل جوانبه وأعلامه، ومرد ذلك لطول الفترة وتراكم الأفكار وتناطحها، وعلى الرغم من هذا كله فقد ميز الباحثان الغربيان المحدثان: بروتون فيليب وقاثر جيل (BRETON PHILIPPE ET GAUTHIER GILLES) في مؤلفهما: تاريخ النظرية الحجاجية HISTOIRE DES THEORIES DE L'ARGUMENTATION بين أربع مراحل قطعتها النظرية الحجاجية عبر تاريخها الطويل وهي:

- **مرحلة التأسيس:** وتتمثل في المواجهات الخطابية والتعليمية للملقنين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة إعداد وتكوين المرافعين، ويمثل هذه المرحلة السفسطائيون، وهي مرحلة تركّز الديمقراطية اليونانية، وتمتد من منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، أي طيلة قرن من الزمان.

- **مرحلة النضج والاكتمال:** ويمثلها الفيلسوف أرسطو الذي قطع العلاقة مع التقليد التكنوقراطي السائد عند السفسطائيين، وتمتد تقريبا بين عامي 329 ق.م و 323 ق.م، حيث استلهمت خطابه من الثقافة الحجاجية التي راجت وتدافعت في رحم الجمهورية، وبدايات الإمبراطورية التي حظيت بخطباء مشهورين أمثال: سيشرون وكنتليان (CICERON ET QUINTILIEN) لذين حرصوا على بناء قوانين خطابية إقناعية.

- **مرحلة الأفول والتراجع:** وتعود بدايتها إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، واستمرت إلى منتصف القرن العشرين.

- **مرحلة الانبعاث والتجديد:** وهو ما عرف بالخطابة الجديدة، وتبدأ هذه المرحلة بظهور الفيلسوف ورجل القضاء البلجيكي شاييم بيرلمان، وكذلك ستيفن أدلسون تولمين (TOULMIN)، ولا تزال مستمرة حتى الآن.⁽¹⁾ (علي الشهبان، 2010م، ص 64).

وسنحاول أن نقدم عرضا ولو موجزا حول المرحلة الأولى - السفسطة - وما تلاها من انتقادات في المراحل التالية أفضت إلى تبلور الدرس الحجاجي اللغوي في العصر الحديث كأحد فروع علم اللغة، مع الإشارة إلى أن التركيز سيكون منصبا على أهم أعلام هذه المراحل وليس المراحل ذاتها.

2. الحجاج في الدرس اليوناني

1.2 الحجاج عند السفسطائيين

السفسطة في أصل معناها اللغوي اليوناني SOPHIA تعني الحكمة، وبإضافة اللاحقة تصير SOPHISTE أي السفسطائي، وتعني المنتسب للحكمة، أي الحكيم، وهو في الاستعمال اللغوي القديم الناظر في حقيقة الوجود نظرا شموليا، هدفه الإحاطة بمبادئه وأسسها الأولى كما هي فعلا، وليس كما يصورها له

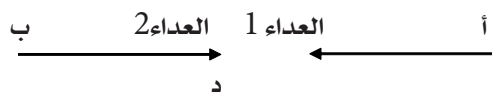
بالنسبة إلى القائل".⁽⁷⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 60).

الضن المقصود بهذا التعليم هو فن الخطابة، حتى أنهم اتخذوها مهنة يلقنونها أبناء الأعيان وغيرهم من الراغبين في ذلك، مقابل مبالغ مالية هائلة، إنه تلقين لآليات إنتاج الخطاب حتى لا تدرك العامة تلك الآليات، وبالتالي يهون عليهم إقناعهم وإيقاعهم تحت سلطة تأثير القول، دون مقاومة أو انتباه إلى ما قد يكون فيها من خداع ومغالطة.⁽¹⁵⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008، ص 25).

وقد تمكنوا من إقناع صفوة المجتمع آنذاك بأهمية أخذ دورات ودروس في هذا التخصص، إن كانت بهم حاجة إلى امتلاك مقاليد الحكم، مركزين في ذلك على فئة الشباب من ذوي اليسار، وكانت غايتهم تعليم تلامذتهم " فن الخداع بواسطة استدلالات مضللة".⁽¹⁶⁾ (روبير بلانشي، 2004، ص 8) أي فن خدمة الفكرة على أي وجه، وبأي وسيلة دون مراعاة لثنائية الحق والباطل، أو الصواب والخطأ إنه " ليس من الضروري أن تعلم شيئاً عن الموضوع لتجيب، وقال: " إن في استطاعته أن يجيب كل سائل عن كل ما يسأل، فهم يعلمون كيف يكسبون الخصم بشتى الوسائل، كاللعب بالألفاظ، والاستعارات، والكنائيات الجذابة، بخداع المنطق وتوهم الحقيقة؛ ومن أجل ذلك سمي اللعب بالألفاظ والتهريج في الحجج سفسطة".⁽¹⁷⁾ (أحمد أمين وزكي نجيب محمود 1964، ص 99).

2-2 بين جدل زينون وحجاج السفسطائيين

نشأ الجدل " DIALECTIC " مع الفيلسوف زينون الأيلي (420 / 490) (ZENON D'EELE ق.م) الذي دافع عن مذهبه في الوجود القائل بالوحدة والسكون في مقابل الفيثاغورية القائلة بأن الموجودات مؤلفة من أعداد أي وحدات منفصلة، ومن ثم فهي متحركة. لقد خلص إلى القول بوحدة الله، وحججه على بطلان الحركة أربع مشهورة، وهي: حجة العداء، وحجة أخيل والسحفاة، وهي تمثيل للأولى، وحجة السهم، وحجة الملعب، ولكن حججه تنطوي على مغالطات.⁽¹⁸⁾ (جورج طريشي، 2006، ص 346-347)، ويمكن الوقوف على ذلك بفحص حجة الملعب والتي مفادها انطلاق عداءين بسرعة واحدة في اتجاهين متقابلين، بحيث يلتقيان بعد مرورهما بجسم ثابت (المقصود به جزء من مساحة الملعب)، وقد جرى كل منهما بالنسبة للآخر بسرعة هي ضعف السرعة التي يقطعان بها الجسم الثابت (الملعب) كما هو موضح في الشكل التالي:



(د) هي نقطة التقاء العداءين وهو منتصف الجسم الثابت أي : الملعب.

وإذا كان مسارهما عبارة عن خط مؤلف من وحدات منفصلة - حسب رأي الفيثاغورية - أي من نقط تقطع في آنات (أوقات) منفصلة متجزئة فيكون "الآن" اللازم لقطع نقطة في الجسم الثابت، نصف الآن اللازم للمرور على نقطة من أحد العداءين

ويبدو أن هذه الفكرة توارثوها عن كوراكس CORAX وهو خطيب صقلي الأصل عاش في القرن السابع قبل الميلاد، حيث أثر عنه أنه كان يقول لتلامذته: " إن انتدبت للدفاع في قضية تعدد بالعنف وكان موكلك ضعيف البنية فقل: إنه من غير المحتمل لضعف بنيته أن يكون هو البادئ بالظلم، فإذا كان موكلك قوي البنية وكانت القرائن جميعاً ضده في الظاهر فقل: إنه كان من المحتمل جداً أن يتصور أنه المعتدي، إلى حد أنه من غير المحتمل أن يكون فعلاً كذلك".⁽⁸⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 60).

وقد أوغل تلامذته في العمل بهذه النصيحة التي تستثمر في المحتمل LE VRAISEMBLABLE ، وتوجيهه في النفع الذي يقصده المحاج لدرجة أن صار ذلك منهم يعرف باسمه (CORAX).

(4) إن تعليق النافع باللذة بدل الخير يعني استعمال كل ما يحقق اللذة من طرائق ووسائل دون أدنى اعتبار لثنائية الحق والباطل، والخير والشر، " لقد أصبح الكلام عندهم فتناً ومخادعاً بعد أن كان موجداً للحقيقة، ومقدماً للمعرفة، وأصبح أيضاً أداة ووسيلة إقناع واقتناع، تحملك على الاعتقاد والظن بشتى الوسائل من دون أن تعير اهتماماً للحق والباطل".⁽⁹⁾ (الزاوي بغفورة، 2005، ص 12).

اشتهر السفسطائيون بالمهارة في هذه الصناعة لدرجة التباهي بذلك، فقد كان (بروتاغوراس) حسب ما روي يفخر بالقدرة على " جعل أضعف الحجج تبدو أقواها".⁽¹⁰⁾ (روبير بلانشي، 2004، ص 9)، وقد انتهى بهم هذا المذهب إلى قناعة محتواها أن اللجوء للحيل الخطابية والألاعيب القولية أمر مشروع، إذا كانت محصلته في النهاية تحقيق مصلحة شخصية راجحة؛ ولذلك حرصوا على ابتداء وتوظيف الأساليب البلاغية والخطابية والتقنيات اللغوية المعينة على كسب تعاطف الجمهور وتأييده.⁽¹¹⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008، هامش ص 31).

(5) جعل السفسطائيون الخطابة أهم الصنائع الإنسانية، وعدوا جميع الصنائع الأخرى من طب وهندسة ومعمار وغيرها لا يمكن أن تحقق للإنسان المدنية والمدنية، و" إنما تؤسسان في نظرهم اعتماداً على بلاغة القول وأهل القول، وليس على أعمال أهل الصنائع والحرف".⁽¹²⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008، ص 25) فالخطيب (RHETEUR) عندهم بيده مقاليد كل شيء " ألم يذكر "قرجياس" لسقراط أن حصون أثينا وموانئها، - أي فضاءات الاقتصاد والقوة - إنما بناها أصحاب القول لا أصحاب الصنائع".⁽¹³⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 55).

(6) قال "بروتاغوراس": أوافق على أنني سفسطائي ووظيفتي هي تعليم الناس".⁽¹⁴⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 61) ولاشك أن

الفرق الدقيق لكأن السفسطة امتدادا لعمل بدأه زينون.

3.2 التقويم الأفلاطوني للسفسطائيين

أفرد أفلاطون لمواجهة خطر السفسطائيين محاورتين هما: محاوره "قرجياس"، ومحاوره "فيدر"، ومن خلال وقوفنا عليهما يمكن لنا أن نتبين أهم الانتقادات التي وجهها أفلاطون للسفسطائيين.

1.3.2 محاوره "قرجياس": كتب نصا شهيرا في "تمجيد هيلينة" ELOGE D'HELENE، وهيلينة عند الإغريق أنموذج المرأة الفاتنة المهلك FEMME FATALE، أخرجها فيه من تلك الصورة القبيحة إلى صورة أخرى محمودة، وسيلته في ذلك سلطة القول، سالكا مسلك توجيه الاحتمال بحسب النفع، ومما جاء في ذلك التمجيد "إن الخطاب جبار ذو سلطة كبرى، فهذا العنصر المادي الذي هو غاية في الصغر وغير مرئي البتة، يرفع الآثار الإلهية إلى منتهى كمالها".⁽²³⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 61).

في الجزء الأول من المحاوره بحث أفلاطون موضوع الخطابة على ضوء ثنائية العلم SCIENCE والظن OPINION، وفرع الإقناع قسمين: إقناع يقوم على العلم، وإقناع يقوم على الظن، وهذا الأخير هو موضوع الخطابة السفسطائية.

ولما كان الأول قائما على مبادئ صادقة وثابتة بل أزلية عند القدامى، فهو مفيد ومنتج للمعرفة (SAVOIR). أما الثاني فقائم على الممكن PROBABLE والمحتمل VRAISEMBLABLE؛ ولذلك فهو غير مفيد ولا ينتج معرفة بل يخلق اعتقادا CROYANCE، وفي الجزء الثاني من المحاوره بحث أفلاطون وظيفة الخطابة على ضوء ثنائية الخير (BIEN) واللذة (PLAISIR) في إطار تصوره لما يمكن أن تحققه للإنسان من سعادة بدنية وروحانية، وذكر أن هناك أربع صنائع تحقق له الخير وهي: الطب والرياضة البدنية، والعدل والتشريع، وفي المقابل هناك صنائع أربع تحقق للإنسان اللذة لا الخير وهي: الطبخ (CUISINE)، والزينة (TOILETTE)، والخطابة (RHETORIQUE) والسفسطة⁽²⁴⁾ (LA SOPHISTIQUE). (هشام الريفي، 1998، ص 64-63).

2.3.2 محاوره "فيدر": هو واحد من شباب أثينا الذي فتن بالحجاج السفسطائي، وهذا هو سبب المحاوره "فيدر" الشاب المثقف الذي خالط الفلاسفة والسفسطائيين معا يتلو على سقراط تلميذ أفلاطون قولا حجاجيا أنشأه "ليزياس" (LYSIAS)؛ أحد السفسطائيين، وصاحب مدرسة لتعليم الخطابة بضواحي أثينا، مبديا شديد إعجابه بمهارته في استحضار الحجته وبناء الأسلوب، ويبدو أن المحاوره قد استهلكت بعبارات تبرز مدى الافتتان والعشق الذي يكنه سقراط وأفلاطون للقول الحجاجي، لدرجة أنه -سقراط- رجل يعذبه مرض سماعه القول الحجاجي.⁽²⁵⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 69).

ونلاحظ أنهما (سقراط وأفلاطون) قد اختارا إستراتيجية

إلى النقطة الأخرى؛ فصار كأن حركة العدائين المتساويين تارة تقطع المسافة في زمن معين وتارة أخرى في ضعف هذا الزمن، فتكون النتيجة الزمن مساويا لضعفه وهذا خلف فالحركة إذن ممتنعة " ولكننا تكشف هنا عن مغالطة صريحة، وهي أن كلا من العدائين يقطع نصف الجسم الثابت لا كله".⁽¹⁹⁾ (محمد على أبو ريان، 2007، ص 78 - 79).

وقد استنارت أغاليط زينون فلاسفة عصره للرد عليها، ولكن هذا الفن الذي كان غرضه البحث عن الحقيقة والوصول إليها عن طريق بحث الفكرة وما يضادها عبر آلية السؤال والجواب سرعان ما تحول مع السفسطائيين إلى منهج مهني تعليمي نقدي، أهله الظروف السياسية السائدة آنذاك حيث بلغت الديمقراطية الأثينية ذروتها، وكان لابد للسياسي الراغب في إحراز النصر على خصومه (الأحزاب) أن يتصف بالقدرة على الجدل، والمناقشة ومقارعة الخصوم، ودحض حججهم صحيحها وباطلها، وإثبات حججه الصحيحة والكاذبة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اختلاط اليونان مع الفرس إما عن طريق الحروب، أو عن طريق الرحلة؛ مكثهم من الاطلاع على عاداتهم وتقاليدهم وأديانهم وحضارتهم، فأخذوا يقارنون ويوازنون فتكونت لهم ملكة النقد وتكسرت على إثرها النرجسية اليونانية، إذا كانوا يعتقدون أنه ليس على وجه الأرض من يديانهم علما ودينا وتقاليدهم فهم الأحرار وغيرهم العبيد، وعن هذه النظرة الواسعة للحضارات ظهرت فكرة النسبية في التقاليد والعادات والأديان، وحلت محل الصحة المطلقة التي طالما ناضل لأجلها سقراط، فكل نظام وكل تقليد هو حق وخير لكن بالنسبة للمجتمع الذي يجري فيه، ولكنه ليس خيرا ولا حقا بالنسبة لبقية المجتمعات، وكذلك الدين فهو لا يأتي من مصدر إلهي وعليه فهو ليس نظاما مطلقا، بل هو أفكار تواضع وتعاقد عليها المجتمع حسب حاجته ومراحل تطوره، ولذلك هاجموا الدين المطلق وأنزلوا مكانه الدين النسبي قياسا إلى المجتمع.⁽²⁰⁾ (محمد على أبو ريان، 2007، ص 91-92).

وهنا يستفزني السؤال التالي: لم لا يكون قد ورث السفسطائيون هذه الحيل والأغاليط عن زينون وقد ثبت عليه ذلك؟ يجيبنا عن هذا السؤال أندريه لالاند في موسوعته الفلسفية حين عرف (SOPHISME) بأنها: "حجة صالحة في الظاهر غير صحيحة في الحقيقة يجري التذرع بها لتوهيم الآخرين [مخالطة]، أو يأخذ بها المرء بدافع من حب الذات والمصلحة أو الهوى".⁽²¹⁾ (أندريه لالاند، 1996، مج 3، ص 1315).

لكنه عندما تطرق لمصطلح (PARALOGISIMIE) قال: "استدلال عقلي فاسد مرادف للسفسطة، لكن من دون العلامة الازدراعية التي عادة تلحق بهذه الكلمة الأخيرة (بنية خداع الغير)، المغالطة ترتكب بحسن نية"⁽²²⁾ (أندريه لالاند، 1996، مج 2، ص 937 - 938)، فالسفسطة نية الخداع فيها مستحضرة ومرصودة مسبقا، أما مغالطات زينون فعن حسن نية، ولولا هذا

السم، ولم يحاول تبرئة نفسه على حساب مبادئه التي يراها حقاً مطلقاً.⁽³⁰⁾ (محمد على أبو ريان، 2007م، ص 99).

حمل من بعده المشعل تلميذه أفلاطون الذي لم يفارقه إلى يوم محاكمته، وقد تركت محاكمة شيخه سقراط غير العادلة اشمئزازاً كبيراً من جرائم الأحزاب السياسية المختلفة؛ التي تداولت على كرسي الحكم، وكل ذلك في تقديره نتاج الفكر السفطائي الذي تشبع به هؤلاء السياسيون أيام الطلب، فاعتزل الناس في مغارة هو وتلميذ آخر لسقراط يدعى إقليدس، ثم ارتحل إلى عدة بلدان منها: مصر القديمة، وجنوب إيطاليا، وفي عام 387 ق.م عاد إلى أثينا وقد بلغ سن الأربعين مقتنعاً بالإصلاح عن طريق التعليم، فأسس أول معهد للتعليم العالي عرف باسم الأكاديمية نسبة إلى البستان الذي شيد عليه.⁽³¹⁾ (جورج طربيشي، 2006م، ص 71-72).

و تركز عمله الإصلاحي في هدم ما بناه السفطائيون واصفا إياهم بأدعياء العلم والمعرفة، وأن ما يدعونه مجرد ظنيات مبعثها الهوى واللذة، وضررها على القيم والأخلاق واليقين والإيمان كبير ويجب التحذير منها، ولذلك فسمات القول السفطائي هي أنه قول إثباتي غير جدلي أي لا يقوم على المساءلة، يعقده صاحبه على الظن لا على العلم -أي مقدماته ظنية - هدفه الإقناع وركيزته اللذة لا الخير، فهو حجاج استهواء لا أكثر.⁽³²⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 56).

حاول أفلاطون التأسيس للحجاج الأخلاقي الذي يمكن وصفه بالمثالي؛ فإذا كان خصومه يهتمون بالشكل في الحجاج - اللغة - فهو على العكس من ذلك يرى أن المبالغة في تحسين العبارة وتنميقها يؤدي إلى تداخل العلاقة بين الفكر واللغة؛ وبالتالي فالجمال عنده هو البحث عن الحقيقة والفضيلة، فالقول هو أخص خصائص الإنسان من حيث قدسيته ومثاليته وتربط أجزائه؛ ولذلك يجب أن تكون الفضيلة قوامه، وبما أن الفكر والحقيقة قضيتان مجردتان فإن الإنسان كلما تجاوز الملموس وتباعد عنه كلما اقترب من الحقيقة، وهي فكرة تتعلق بنظريته في المثل التي ترى أن عالم المحسوسات ما هو إلا عبارة عن إثارة وتذكير بعالم الغيبات⁽³³⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، ص 28-29)، وهكذا تحول مع أفلاطون الجدل إلى منهج علمي يرتقي بالعقل من عالم الموجودات إلى عالم المعقولات.

4.2 الحجاج عند أرسطو من الممارسة الواعية إلى القواعد الوافية

للجدل تاريخ طويل قبل أن يصل إلى مرحلة النضج والصيغة العلمية، شأنه في ذلك شأن بقية العلوم، ويمكن على العموم التمييز بين ثلاث مراحل وهي:

- مرحلة الممارسة الواعية للجدل لكنه غير مسبوك في نظرية، أي دون أن يمارس كعلم له أطره ومنطقاته ومصطلحاته، ويمثلها الفيلسوف زينون الأيلي (490/ 420 ق.م).

- مرحلة الشرح والتنظيم العام لهذه القواعد المستعملة في

تضامنية مع هذا الشاب فيدر، وهي إستراتيجية يحاول فيها المرسل أن يوطد العلاقة بينه وبين المرسل إليه، وذلك بتعبيره عن مدى احترامه لهذه العلاقة إن وجدت، والمحافظة عليها وتطويرها، وذلك بإزالة معالم الفوارق بينهما، وبصورة مختصرة هي محاولة التقرب من المرسل إليه، وإن لم توجد فإنه يسعى لتأسيسها كأن يتقرب منه بما يجعله يثق بأنه يميل إليه طبيعياً، دون أن تكون هناك دوافع من ورائها منفعة خفية.

وتُصطَفَى هذه العلاقة الإستراتيجية بتأثير عاملين هما:

أ) العلاقة السابقة بينه وبين المرسل إليه، وهي نسبة تتراوح بين الحميمية والعدم.

ب) السلطة التي قد يمتلكها أحد الطرفين على الطرف الآخر، فقد يعلو أحدهما على الآخر، وقد يساويه، وقد تنعدم عندما لا تكون بينهما أي علاقة.⁽²⁶⁾ (عبد الهادي بن ظافر الشهري، 2004م، ص 256 - 258).

وجلياً أن العلاقة ليست حميمة وليست معدومة، لأن فيدر خالط الفلاسفة والسفطائيين، أما السلطة فهي معدومة، وانبهار "فيدر" بخطاب (ليزياس) ودفاعه عنه في أول الأمر دليل على ذلك، وبعد التصريح بهذه الإستراتيجية قام سقراط بإنشاء نص حاكي فيه بعض حجاج (ليزياس) دون بعض قاصداً بذلك الإشارة إلى إمكانية الخروج عن الرأي الشائع إلى ما يريد أن يجر سامعيه إليه، ثم عارض نصه بنص آخر فيه حجاج مضاد، وما انتهى سقراط من قراءة النص حتى سارع "فيدر" إلى الاعتراف بإعجابه بحججه واصفاً "ليزياس" بالخطيب الباهت.⁽²⁷⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 70).

لقد عمد سقراط إلى حجج قائمة على مبدأ الفصل المفهومي حسب تعبير بيرلمان وتيتيكا، وهو نوع من الحجج قائم على مبدأ الفصل بين جملة من المفاهيم والتصورات التي كان بينها نوع من التقارب والتواصل؛ "إنه مبدأ القطع بالحقائق الحادثة التي تحررت من كل زيف، وصفاً معدنها من كل كدر، إذ تمايزت عناصرها وبان فيها الحق من الباطل، والظاهر من الحقيقة".⁽²⁸⁾ (علي الشبهان، 2010م، ص 316). إنه استدراج أفلاطوني لإخراج الخصم مما يعتبره الفيلسوف قول الظاهر إلى قول الحقيقة، والحقيقة هي فضاء القول الأصيل عنده.⁽²⁹⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 70).

3.2.3 أفلاطون يصلح ما أفسده السفطائيون

لقد أحدث السفطائيون هزة عنيفة في المجتمع الأثيني على مستوى العقائد والأخلاق تشكيكا وتهديما؛ فانبرى المحافظون للرد عليهم ودحضهم، وكان سقراط خصمهم العنيد بجدله، الذي يعد صورة متطورة لجدل زينون في البحث عن الحقيقة، ولكن بأسلوبهم نفسه القائم على إيقاع الخصم في التناقض بطريقة تهكمية، وقد كلفه ذلك الامتثال أمام المجلس النيابي في أثينا وأدين، وحكم عليه بالإعدام بتجرع

وأجزاء الأرخانون بالإضافة إلى مقدمة "فورفوريوس" - وهي عبارة عن تقديم عام للمنطق - هي:

- (1) إيساغوري وتعني المدخل.
- (2) كاتيغوريان وتعني المقولات.
- (3) باري أرمينياس وتعني العبارة.
- (4) أنالوتيك الأولى وتعني التحليلات الأولى.
- (5) أنالوتيك الثانية وتعني التحليلات الثانية.
- (6) توبيكا أي المواضيع الجدلية.
- (7) سوفيستكا وتعني السفسطة.
- (8) ريتوريكا وتعني الخطابة.
- (9) بوتيكا وتعني الشعرية.⁽³⁷⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008م، هامش الصفحة 31).

ومنذ القرون الأولى طفت مسألة اختلاف القدامى حول قضية ترتيب أندرونيكوس لأجزاء الأرخانون، ففي القرن الثالث بعد الميلاد عارض فورفوريوس - واضع مقدمة الأرخانون - بقوة من كان يصير على تقديم كتاب المقولات على كتاب المواضيع، وحسب بلانشي فإن ترتيب "أندرونيكوس" استقر في الناس بداية القرن السادس للميلاد، وقد اعتمده محققو الكتاب و مترجموه حتى القرن العشرين، ومع هذا فقد استثيرت من جديد مسألة ترتيب الأجزاء بعد أن لوحظ عدم التناسق، والتفاوت في العمق، والتضارب أحياناً⁽³⁸⁾. (هشام الريفي، 1998، ص 87-88).

والشيء الملحوظ أن حمى الاختلاف قد اشتدت حول ثلاثة أجزاء وهي:

- (1) التحليلات الأولى (LES PREMIERS ANALYTIQUES): وهو يتناول بحث القياس بحثاً صورياً هدفه تتبع الأوجه الصحيحة في بناء الاستدلالات فقط.
- (2) التحليلات الثانية (LES SECONDS ANALYTIQUES) وهو مخصص لبحث ودراسة القياس القائم على مقدمات ضرورية يقينية (البرهان).
- (3) المواضيع (LES TOPIQUES) وهو مخصص لدراسة وتطبيق نظرية القياس في مجال المشهورات أي القياس القائم على مقدمات ظنيّة.⁽³⁹⁾ (رشيد الراضي، 2010، ص 63).

وإذا كان واضحاً - من خلال التسمية - أن التحليلات الأولى أسبق زمنياً من التحليلات الثانية فإن المعترك حصر بينها وبين المواضيع، فابن سينا يرى بأن الأشبه أن يكون المعلم الأول قدم البرهان على سائر الفنون ومنها الجدل، لأن غايته أسمى وأفضل وهي الوصول إلى الحق واليقين، ومن حق الأهم أن يقدم كما يقدم الواجب قبل المستحب.⁽⁴⁰⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 91).

الحجاج الجدلي، وهذا عمل قام به أرسطو في كتابه المواضيع.

- مرحلة التجريد والانتقال من دراسة الحاجة الجدلية، إلى نظرية الاستدلال الصوري عامة أي إلى المنطق، وهذا هو التطور الذي حصل من المواضيع إلى العبارة إلى التحليلات.⁽³⁴⁾ (أندريه لالاند، 1996، مج 1، ص 302).

أفاد أرسطو من آراء أسلافه الفلسفية بصفة عامة، وآراء شيخه أفلاطون بصفة خاصة، إذ يعد الفيلسوف الوحيد الذي وصلتنا كتاباته كاملة تقريباً، وعلى العموم فإن أغلب مصادر الفلسفة اليونانية في الفترة السابقة على سقراط ضاعت، ولولا ابتكار الفلاسفة اليونان لسنّت سبر الآراء السابقة واستطلاعها، وهو ما يعرف بـ DOXOMETRIE لكان الضرر أكبر، وكان لأرسطو الحظ الأوفر من هذه السنة حيث اشتهر بعرض الآراء السابقة عليه في كل مشكلة يعرض لها.⁽³⁵⁾ (روبير بلانشي، 2004م ص 19).

ألف في شبابه كتباً عندما كان يدرس بـ "الأكاديمية" L'ACADEMIE وهي مدرسة أسسها شيخه أفلاطون، يقال إنه ترسّم فيها فلسفة وفكر شيخه؛ ولكنها ضاعت جميعاً، ولم يبق منها إلا العناوين وبعض الأقوال التي حفظها عنه تلميذه "تيوفراسط"، ومنها كتاب في الخطابة الذي لا نعرف عنه سوى أنه كان سرداً وجمعاً لما قيل في هذه الصناعة حتى عصره.

وبعد وفاة أفلاطون (ت 348 ق.م) أسس أرسطو مدرسته المسماة: (LE LYCEE) واشتغل فيه بالتدريس مدة اثنتي عشرة سنة، ألقى فيها دروساً ومحاضرات، تخلص فيها شيئاً فشيئاً من تقليد شيخه، ليؤسس لفلسفة خاصة عرفت باسمه، وصارت تلك الدروس المحررة مرجعاً يعود إليه طلابه، ولكنه لم ينشرها على الرغم من اعتزازه الشديد بها، وقد نسجت حول هذه الدروس أساطير غريبة؛ منها أنها أخفيت في كهف بعد وفاته. ومهما اختلفت الرؤى حول صحة هذه الرواية فإن عبارة جهد أرسطو الفلسفية في المنطق والأخلاق والسياسة والطبيعة لفها النسيان طيلة ثلاثة قرون بعد وفاة صاحبها ثم أخرجت للناس، وفي حوالي عام (60 ق.م) قام الخليفة الحادي عشر على رأس "الليسي" بعد أرسطو "أندرونيكوس الروديسي" ANDRONICOS DE RHODES "بنشر هذه الدروس للمرة الأولى، وقد تصرف فيها من ناحية التصنيف والمصطلح، حيث قسمها إلى مجموعات بحسب المواضيع المعالجة، وجعل كل مجموعة في كتاب، واختار لبعضها عناوين، وهذا صنيعه في دروس المنطق، فمصطلح (LOGIQUE) لم يطلقه أرسطو، وإنما أطلق على العلم الواقع تحت كلمة ANALYTIQUE وتعني التحليلات، وبعد أن فرغ من عمليتي التصنيف والمصطلح حصل على تسعة أجزاء أطلق عليها اسم الأرخانون L'ORGANON وتعني الآلة، قناعة منه أن "أرسطو كان يرى أن المنطق ليس جزءاً من الفلسفة بل علماً عقلياً تحضيرياً لها"⁽³⁶⁾ (روبير بلانشي، 2004م ص 19)، أي ممهداً لها.

التحليلات الأولى والثانية، وهناك دلائل أخرى تبين أن بعض أجزاء الأركان على الأقل لم تكتب على الصورة التي وصلتنا عليها دفعة واحدة، بل أجريت عليها بعد تصحيحات وإضافات.⁽⁴⁷⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 91).

ومهما كان الأمر في مسألة الأركان وترتيب مسائله فإن المؤكد هو مخالفة أرسطو ELTOTSIRA (384 - 322 ق.م) لشيخه أفلاطون حيث فرق بين الجدل أي علم الآراء الاحتمالية - مقدماتها ظنية محتملة - ، وبين علم التحليلات أي علم البرهان - مقدماته يقينية - ، وبحثهما جنباً إلى جنب؛ جاعلاً من الرأي والاحتمال والممكن والتخييل أهمية بالغة في حياة الناس وفي العملية التواصلية؛ لأنه فتح المجال أمام المخالف للإدلاء برأيه؛ وبذلك جسد الفكرة القائلة: أن أفلاطون رفع الفلسفة من الأرض إلى السماء بتجريده ومثاليته، وأرسطو أعادها إلى الأرض بدراسته الإنشائية التواصلية⁽⁴⁸⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008، ص 32). ومن هنا صار الحجاج علماً قائماً بذاته يسامي علم البراهين في المنزل، بل صار مهاداً ينبئ عليه صرح علم البراهين؛ ولذلك قدّم عليه في الأركان على الراجح من القول.

2- الحجاج في الدرس اللساني

قبل أن نقف على نظرية الحجاج في اللغة لديمكرو وزميله أنسكومبر لا بد من الإشارة إلى مسألتين مهمتين؛ أرى أنهما قد مهدتا لظهورها وهما:

- استعادة السفسطة لمجدها مع ديكارت: فعلى الرغم من الصفة القدحية السلبية التي ألصقها بهم أفلاطون ولازمتهم إلى عهد قريب، حتى صارت كلمة السفسطة مرادفة للكلام الفارغ عديم الجدوى، أو الكلام الذي لا يرجى من ورائه عمل، فإن الدراسات الحديثة قد أعادت لبعض الآراء السفسطائية قيمتها وروحها، ويتمثل ذلك في المدرسة الظاهرية LA PHENOMENOLOGIE بزعامة آدموند هوسرل LRESSUH DNUMDE (1859 - 1938)، الذي تشعب بالفلسفة الديكارتية القائمة على منهج الشك.

إن الفلسفة الديكارتية في نظر هوسيرل تكتسب قيمتها من رجوع ديكارت إلى ذاتية الإنسان ليؤسس بها وعليها بناء المعرفة، وقد توصل ديكارت وهو يطارد اليقين بالشك إلى مقولة "الكوجيطو" (أنا أفكر إذن أنا موجود) بعدها اليقين المطلق، وبتعبير أوضح وأبسط فإن ديكارت وهو يشكك في كل شيء اكتشف حقيقة غير قابلة للتشكيك: أنا موجود لأنني أفكر، إن وجود العالم وكل المقولات العلمية والمعرفية هي موضع شك وخارج نطاق اليقين، إلا الذات الإنسانية التي تمارس الفعل التفكير.⁽⁴⁹⁾ (عبد الكريم شريف، 2007، ص 87 - 88 - 89)، وهذا ما آمن به السفسطائيون حين جعلوا الإنسان مقياس كل شيء، وحوّلوا البحث من الطبيعة إلى الإنسان، ومن الموضوعية إلى الذاتية.

وفي مقابله نجد روبير بلانشي يقول: " يجب أن نتذكر أن تحليلات أرسطو (ANALYTIQUES) قد سبقتها تاريخياً الطوبيقا (المواضع) (LESTOPIQUES)، ويكون مؤلفه الخطابة (RHETORIQUE) امتداداً لذلك، فقبل أن يشرع في دراسة القياس البرهاني الاستدلالي فإنه كان قد حلل القياس الجدلية، أي: الطرق العقلانية المستخدمة في المحادثات اليومية".⁽⁴¹⁾ (عمارة ناصر، 2009، هامش ص 22).

ويقول ابن رشد: "ولذلك قلّمنا نجد أرسطو يبرهن شيئاً في هذه العلوم (العلم الطبيعي، العلم الإلهي، العلم المدني) إلا قدم قبل البرهان على ذلك تشكيكاً جدلياً".⁽⁴²⁾ (ابن رشد، 1992، ص 501 - 502)؛ وبهذا يكون أرسطو قد اتخذ مجال المحتمل أرضية بنى عليها صروح اليقين البرهاني، وعلى هذا فالجدل بالنسبة إليه "مرحلة واسطة في الانتقال إلى اليقين البرهاني الذي لا يقبل "النقاش"، ويستعصي على التزييف والخداع".⁽⁴³⁾ (عمارة ناصر، 2009، هامش ص 12 - 22).

فعلى الرغم من أن كتاب الجدل يأتي في الأركان بعد التحليلات، بعدها دراسة للاستدلال المبني على المقدمات الظنية تتلو الاستدلال البرهاني المبني على المقدمات اليقينية، فإنه مما لا شك فيه أنها قد سبقتها من الناحية الزمنية، بل يمكن أن يكون أرسطو قد عزم على أن يعمل للبرهان دراسة مماثلة لعمل الجدل التي كان قد فرغ منها، فوجد نفسه قد انساق إلى إعداد نظرية في القياس التحليلي على حد تخمين بعض الباحثين⁽⁴⁴⁾ (محمد سالم محمد الأمين الطلبة، 2008، ص 34)، ولا شك أن الرأي الثاني أرجح للأسباب التالية:

(1) أن عمل أرسطو بدأ بنقد السفسطائيين" إذ نجده يركز على إنتاج الحجاج عندهم وما يتعلق به من آليات، وخاصة الشراك القولية التي كانوا ينصبونها للإيقاع بخصومهم، وقد ذكر أن لحجاجهم خمسة أهداف هي: التبيكات، والإيقاع في الخطأ، والدفع إلى مخالفة المشهور، واستعمال صيغ لغوية غير مألوقة، وأخيراً دفع المجيب إلى الكلام الفارغ"⁽⁴⁵⁾، والنقد يقتضي من صاحبه الإتيان بالبدل وهو القياس البرهاني.

(2) أن الغرض القريب من وضع الأركان هو التعليم، وهو يقتضي منهجاً تدريجياً يترقى فيه المتعلم من السهل إلى الصعب فالأصعب، ومن البسيط السهل إلى المركب المعقد " فأرسطو بحث حينئذ في الجدل (أي في القول الحجاجي) قبل أن يبحث في البرهان أي الأولى قاداته إلى دراسة الاستدلال في القول الثاني".⁽⁴⁶⁾ (هشام الريفي، 1998، ص 92).

(3) هناك أمارات تدل على أن أرسطو قد مارس عمليات تصحيح وتنقيح على أجزاء الأركان، وهذا يحدث كثيراً لمن يبدأ التأليف في مرحلة مبكرة من حياته، بل ويحدث للإنسان بصفة عامة أن يعدّل ويراجع ويضيف، وهذه سمة غالبية على مؤلفات أرسطو الكبرى، لقد أكد الدارسون بما لا يدع مجالاً للشك أنه ألف كتاب المواضع قبل كتابي

ومن الأخير انبثقت نظرية الحجاج في اللغة، "فما الفعل الحجاجي إلا نوع من الأفعال الإنجازية التي يحققها الفعل التلفظي في بعده الغرضي"⁽⁵⁷⁾ (رتيبة محمدا بولدواني 2013م، ص 22). لقد ألف أوزوالد ديكر (O. Ducrot) بمشاركة زميله جون كلود أنسكومبر (Jean Cloud Anscombe) كتابا بعنوان: "الحجاج في اللغة" (L'argumentation dans la langue)، حيث أسسا مفهوما جديدا للحجاج يختلف عن مفهوم بيرلمان وتيتيكا، ويقوم أساسا على اللغة بخلاف مفهوم بيرلمان القائم على تقنيات وأساليب في الخطاب، تكون شبه منطقية، أو شكلية، أو رياضية⁽⁵⁸⁾ (سامية الدريدي، 2008، ص 22).

إذن هناك صنفان من الخطاب اللغوي يهدف أحدهما إلى نقل المعلومة كما هي دون زيادة أو نقصان؛ بدءا بالأحداث الحاضرة إلى الأحداث الجارية، ويدخل فيه الأخبار اليومية والنظريات العلمية، حيث يؤدي فيها المرسل دور الصحفي أو الراوي، ويشترط فيه الصدق والموضوعية مكتفيا في ذلك بنقل المعلومة الخبر إلى المتلقي تفهم وتعلم فقط.

أما ثانيهما فيتجاوز به صاحبه الفهم إلى غاية أبعد ألا وهي إقناع المتلقي بمحتوى خطابه، ومن ثم صدقها الذي غالبا ما يترجم إلى سلوكيات عملية بالفعل، أو الكف، والترك. إنهما يرفضان المبدأ القائل: إن اللسان يستخدم للتواصل بالمعنى الضيق للعبارة، أي لنقل المعلومة أو الخبر "إننا نريد أن نصل إلى القول إن الإخبارية في الواقع تعد من درجة ثانية بالمقارنة مع الحجاجية، فالزعم بوصف الحقيقة قد لا يكون إذن إلا قناعا لزعم أكثر جوهرية بممارسة ضغط على آراء الآخر"⁽⁵⁹⁾. (صابر الحباشة، 2007م، ص 197).

لقد بينا أن اللغة حجاجية في ذاتها أي أنها لا تحمل فقط معلومات وتعابير، ولكنها تحتوي في نفسها، وبصرف النظر عن استعمالها في السياق على عناصر حجاجية بحتة⁽⁶⁰⁾. (كورنيليا فون راد سكوي، 2001، ص 32) فالمفوضات إذن تتضمن قضية حجاجية ليست مضافة أو دخيلة، ولكنها كامنة في اللغة بوصفها عمادا لكل دلالة، وعليه فالحجاج لم يعد نشاطا لسانيا ثانويا من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى عينه، وأساس تأويل الخطاب⁽⁶¹⁾ (صابر الحباشة، ص 197). ومع العوامل التداولية الخارجية تشتت الظاهرة وتتقوى. "فالحجاج لا تنبني في فراغ ولا تصاغ في مجال معزول، أو سياق منفصل عن شروط تكوينه وسيرورته"⁽⁶²⁾ (عمارة ناصر، ص 99). فاللغة تحمل بعدا حجاجيا في جميع مستوياتها، فهي عند أوزوالد ديكر وسيلة للسجل بين الذات البشرية، والحجاج جوهرها بصرف النظر عن استعمالاتها المختلفة⁽⁶³⁾ (عبد الهادي صولته، ص 38).

وتجدر الإشارة إلى أهم مفهوم في نظرية ديكر وزميله - الحجاجية هو التوجيه (L'orientation)؛ إذ حصر فيه غاية الحجاج ووظيفته، فحينما نقول لشخص ما: إن هذا الفندق

- بداية مرحلة الخطابة الجديدة: وهي مرحلة التجديد والانبعث، وهو ما عرف بالخطابة الجديدة، وتبدأ بظهور الفيلسوف ورجل القضاء البلجيكي شايم بيرلمان CHAIM PERLEMAM، مع مؤلفه الخطابة الجديدة (AL EUQUIROTEHR ELLEVUON)،⁽⁵⁰⁾ (علي الشبهان، 2010م، ص 64)، إذ عُدَّ مجددا للبلاغة في أوروبا مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، بعد فترة ركود طويلة؛ ولكن مع ذلك فقد طغا المنطق الأرسطي على صنيعه ولم يستطع التخلص منه. إن "عقلنة الطرح ومنطقته من أهم الإضافات التي ألحقها "بيرلمان" بنظرية الحجاج، ومبعث ذلك المكانة التي رأى أن المنطق قد تبوأها حديثا، والتي مكنته عن العدول من تكرار الأشكال القديمة، والأخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل"⁽⁵¹⁾ (محمد سالم ولد محمد الأمين، مارس، 2000م، ص 71)؛ ولذلك نجده يعرف البلاغة الجديدة بقوله: "دراسة التقنيات الخطابية الموجهة لتحريض أو لزيادة الموافقة للفرضيات المقدمة لبعض المستمعين"⁽⁵²⁾ (بلعابد عبد الحق، جانفي 2006م، ص 268)، وفي السنة نفسها (1958م) ألف ستيفن تولمان STYEPHEN TOULMIN كتابه الموسوم بـ "استعمالات الحجاج" (USAGES DE L'ARGUMENTATION) قارب فيه نظرية الحجاج من منظور منطقي، إذ حاول بناء نماذج نظرية تنطلق من مقدمات وتصورات معينة⁽⁵³⁾ (محمد طروس، 2005م، ص 57)، فكان عمله هذا "أقرب إلى صناعة البرهان في المنطق، حيث يقصد بالبرهان إثبات الحق لا لإقناع الغير به"⁽⁵⁴⁾ (عبد الله صولته، 2001، ص 29 - 30)، وهذا أهم فرق بينه وبين بيرلمان الذي كان يهدف إلى إقناع المستمع. ولعل هذين الأمرين عاجلا ببرز المقاربة اللسانية للحجاج التي أثمرت نظرية الحجاج في اللغة. فما نظرية الحجاج في اللغة؟

1.3 ديكر ويتجاوز حريات المنطق الأرسطي

انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من رحم نظرية الأفعال اللغوية التي أسس بنيانها جون لانجشو أوستين البريطاني (Jhon Lanshaw Austin) (1911م - 1960م)؛ أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد حيث وضع نواة التداولية اللسانية المتمثلة في فكرة أفعال الكلام، حين ألف كتابا بعنوان How to do things with words) وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها في جامعة هارفرد سنة 1955م، ضمن برنامج سمي بـ: "محاضرات وليام جيمس (J-L Austin) (1970، P1-4)⁽⁵⁵⁾ (William James)، وجاء من بعده تلميذه سيرل (Searl) المولود سنة 1932م، وأستاذ بجامعة بركل Berkeley بكاليفورنيا فبنى على ما ابتدأه فأحكم هذه النظرية، ووصلت درجة النضج.

جاء ديكر وقام بتطوير أفكار هذه النظرية، وعلى الخصوص آراء أوستين، مقترحا إضافة فعلين لغويين آخرين هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج⁽⁵⁶⁾ (أبو بكر العزاوي، 2006م، ص 55)،

ومن هنا لزمنا التفريق بين الاستدلال (Raisonnement)، وبين الحجاج (Argumentation) لأنهما ينتميان إلى نظامين مختلفين تماما هما: نظام المنطق، ونظام الخطاب⁽⁷¹⁾ (أبو بكر العزاوي، ص 57). فالاستدلال عملياته منطقية صرفة، مصدرها المنطق الأرسطي، وهو يقتضي أن تكون كل عناصره أحادية المعنى وغير قابلة للتعدد والاشتراك، بحيث تكون مكوناته مفهومة لدى الجميع بلا خلاف بينهم، وهو كذلك غير مرتبط بمقام معين، فهو استنباط لنتائج ضرورية من مقدمات يقينية، وذلك مجال بحث المناطقة الساعين إلى شكلنة الأنظمة بصرف النظر عن محتوياتها.

أما الحجاج فهو على العكس من ذلك كله، فمن خصائصه التعدد، والاختلاف والخصوصية، والمقامية، فالحقيقة فيه ليست مضمونة، ولا ضرورية، ولا أحادية، بل هي نسبية ذاتية لكن لا إلى غير حد؛ لأنها -عملية التحاج- تجري في مقام معين وتحت أنظار جمهور سواء أكان كونيا أم خاصا⁽⁷²⁾ (عبد الله صولت، 2011م، ص 14-15).

و يمكن أن نضرب لهما المثالين التاليين:

1) كل اللغويين علماء.

- زيد لغوي.

- إذن زيد عالم.

2) انخفاض ميزان الحرارة.

- إذن سينزل المطر.

فالمثال الأول يتعلق ببرهنة أو قياس منطقي (Syllogisme)، ونتيجة أن زيد عالم حتمية ضرورية لأسباب منطقية. أما استنتاج نزول المطر في المثال الثاني فهو احتمالي⁽⁷³⁾ (أبو بكر العزاوي، 2009م، ص 20)، وهذا هو المجال الذي تبحث فيه نظرية الحجاج في اللغة.

و خلاصة القول: "هي نظرية تتعارض مع كثير من النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعد الحجاج منتما إلى البلاغة الكلاسيكية (أرسطو)، أو البلاغة الحديثة (بيرلمان، أولبرخت تيتيكا، أو ميشال ميير)، أو منتما إلى المنطق الطبيعي (جان بليز غريز)"⁽⁷⁴⁾ (سامية الدريدي، ص 22).

إنها نظرية تميز بين نظامين مختلفين، نظام تسميه المنطق، وآخر تسميه الخطاب، ولكل منهما منطق ومنهجه، فانظر كيف دارت الدائرة البحثية لتعود إلى الأصل الأول، وبعبارة أدق إلى المرحلة الأولى من مراحل الدرس الحجاجي، إنها المرحلة السفسطائية التي كانت تعتمد على اللغة واللغة فقط، ولم يكن حينئذ قد عُرف المنطق أصلا، ومع ديكرو وأنسكومبر اتضحت المقاربة اللغوية التي تناولت الحجاج من زاوية تداولية قولية صرفة، مما أعطى انطبعا أن السفسطة لم تعد مرادفة للكلام الفارغ.

مريح وتتوفر فيه جميع وسائل الراحة، فنحن لا نريد إخباره بذلك بقدر ما ندعوه إلى زيارته، فنحن جهدنا أنفسنا في توجيهه إلى استنتاج أن إقامته بهذا الفندق سيكون لها الأثر الإيجابي عليه، ومن ثم فهي دعوة للإقامة بهذا الفندق، فالإخبارية إذن ثانوية بالنسبة للوظيفة الحجاجية⁽⁶⁴⁾ (عمر بلخير، 2003م، ص 123).

وهذه التوجيهات الحجاجية (Orientations argumentatives) هي التي تسمح باتباع ملفوظ معين للملفوظ آخر، وتمنع متابعتها بملفوظات أخرى، أي أنها ترجح نتيجة معينة دون غيرها من النتائج، التي قد تكون مصرحا بها أو متضمنة في القول.

وجملة القول أن نظريتهما تقوم على ثلاثة أسس وهي:

1- الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.

2- المكون الحجاجي في المعنى أساسي، والمكون الإخباري ثانوي.

3- عدم الفصل بين الدلائليات والتداوليات⁽⁶⁵⁾ (مليك غبار وآخرون، 2006م، ص 53)؛ فما هو المنطق الذي ترتكز عليه نظرية الحجاج في اللغة؟

2.2 ديكر و يقترح منطق اللغة

منطق اللغة (La logique du langage) هو مصطلح اقترحه ديكر في سياق رده على الباحثين عن المنطق في اللغة، سواء أكان هذا المنطق أرسطيا، أم تأليفيا، أم منطق المحمولات، أم غير ذلك⁽⁶⁶⁾ (أبو بكر العزاوي، 2010م، ص 16)، فما المراد بالمنطق الطبيعي للغة؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال الجوهرى في بحثنا يجب أن نعترف بحقيقة صعوبة تحديد هذا المصطلح بدقة لاتساع دائرته المفهومية؛ فهي تشمل كل أنواع المنطق التي لا تنزل في المنطق الصوري والرياضي⁽⁶⁷⁾ (أبو بكر العزاوي، 2006م، ص 17).

لاحظ ديكر أن بين بعض الأقوال اللغوية المتوالية تتشكل "تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى...متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. إن كون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة لا بواسطة الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها"⁽⁶⁸⁾ (أبو بكر العزاوي، 2006م، ص 55).

إن منطق اللغة "يعني وجود طابع استدلال في بنية اللغة الطبيعية، ووجود علاقات استنباطية بين مكوناتها دون اللجوء إلى اصطناع هذه المكونات أو صورنتها"⁽⁶⁹⁾ (عمار ناصر، ص 104). وهذا ما أكده ديكر حين قال: "توجد بين بعض ملفوظات اللغة الطبيعية علاقات حتمية، حيث إننا عندما نقبل هذه الملفوظات؛ نكون مجبرين على تقبل بعضها الآخر"⁽⁷⁰⁾ (عمار ناصر، ص 104-105).

وفي خاتمة هذا البحث يمكن أن نسجل النتائج التالية:

أولاً: الحجاج في اللغة نظرية غربية دلالية حديثة تقدم تصوراً جديداً للمعنى من حيث طبيعته ومجاليه، وهي تندرج ضمن تيار حديث في اللسانيات، ظهرت على يد الألسني الفرنسي "ديكرو"، بعد ظهور كتابه "الحجاج في اللغة" عام 1983م، مفادها أن اللغة تحمل في جوهرها بعداً حجاجياً، ومن ثم فهي لا ترى بأن الوظيفة الإبلاغية الإخبارية هي الوظيفة الأساس والوحيدة للغة، بل إن الوظيفة الحجاجية هي أهم وظائفها، وتلقفها عنه الباحثون العرب ومنهم: أبو بكر العزاوي، وعبد الله صولت، وسامية الدريدي وغيرهم.

ثانياً: الحجاج فعالية تداولية خطابية حوارية إقناعية، تعتمد الحجج اللغوية وسيلة لها - بدل الحجج البرهانية- لنتائج معينة، وهو ما يعرف بمنطق اللغة الطبيعية؛ فتغيير زاوية البحث، وتطوير الأدوات المنهجية والمعرفية في دراسة البلاغة، من شأنه الإسهام في التأسيس لثقافة الحوار، والنقد البناء، والانفتاح على الآخر وقبوله، وفي هذه الحال يمكن القول بأن البلاغة قد استعادت مجدها ووظيفتها، وخلعت من عنقها غل المغالطة والخداع الذي وضعه السفسطائيون، وصرامة المنطق الأرسطي.

ثالثاً: مرت النظرية الحجاجية بمراحل مختلفة، تجاذبتها مناوئ مختلفة كالخير واللذة، واليقين والظن، والموضوعية والذاتية، وفي كل مرحلة كان يعلو فيها مبدأ ويخبو آخر، واستدارت المرحل الأربع لتعود الكلمة الأخيرة للغة كما كانت زمن السفسطا، لكن بعيداً عن الخداع والمغالطة وذلك في الحقيقة نصر للغة وتبرئة لها مما علق بها.

الهوامش

- 1- علي الشبهان، الحجاج والحقيقة وآفات التأويل (بحث في الأشكال الإستراتيجية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، عام 2010م.
- 2- رشيد الراضي: الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، عام 2010م.
- 3- هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، إشراف حمادي صمود، منوبة، تونس، د - ط، عام 1998م.
- 4- محمد سالم محمد الأمين الطليبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2008م.
- 5- الزاوي بغورة: الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليبة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2005م.
- 6- روبير بلانشي: المنطق وتاريخه من أرسطو إلى راسل، ترجمة محمد يعقوبي، دار الكتاب الحديث القاهرة، د-ط، عام 2004م.
- 7- أحمد أمين وزكي نجيب محمود: قصة الفلسفة اليونانية، مطبعة الجنت للناثيف والترجمة والنشر، الطبعة الخامسة، عام 1964م.
- 8- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2004م.
- 9- أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الأولى 1996م،

- 10- عمارة ناصر: الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2009م.
- 11- ابن رشد: "نص تلخيص منطق أرسطو، كتاب طوبقي وسوفسطيقي أو كتاب الجدول والمغالطة، تحقيق جيرار جيهامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 1992م.
- 12- جورج طربيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليبة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، عام 2006م.
- 13- محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، عام 2007م.
- 14- عبد الكريم شريف: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، الدار العربية للعلوم، ناشرون، الطبعة الأولى، عام 2007م.
- 15- بلعابد عبد الحق: تداوليات الخطاب القانوني، مجلة اللغة والأدب، العدد 17 جانفي 2006م، الصادرة عن جامعة الجزائر.
- 16- محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، المغرب، الطبعة الأولى، عام 2005م.
- 17- عبد الله صولت: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منوبة، تونس، كلية منوبة، عام 2001م.
- 18- سامية الدريدي: دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، عام 2009م.
- 19- Quand dire c' est faire (how to do things with words . J-L Austin) Tra , Gilles Lan , Seuil , 1970 .
- 20- أبو بكر العزاوي: الحجاج والمعنى الحجاجي، مقال ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق: حمّو النقاري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، عام 2006م.
- 21- رتيبة محمدا بولدواني: آليات الحجاج والتواصل في ضوء النظرية التداولية، مجلة مقاربات، دورية محكمة تهتم بالبحث العلمي، العدد الثاني عشر، فاس، المغرب، المجلد السادس 2013م.
- 22- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني وبنيتة الأسلوبية، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، جدار للكتاب العالي، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، عام 2008م.
- 23- صابر الحباشة: تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاجية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، الطبعة الأولى، عام 2007م.
- 24- كورنيليا فون راد صكوح: الحجاج في المقام المدرسي ملاحظات حول تعليم الحجاج في المرحلة الثانية في التعليم الأساسي، تحت إشراف: فريق البحث في البلاغة والحجاج برئاسة حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، 15 أفريل، عام 2001م.
- 25- عمر بلخير: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، عام 2003م.
- 26- مليكة غبار وآخرون: الحجاج في درس الفلسفة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د-ط، عام 2006م.
- 27- أبوبكر العزاوي: حوار حول الحجاج، الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، عام 2010م.
- 28- أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، عام 2006م.
- 29- عبد الله صولت: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، عام 2011م.
- 30- أبوبكر العزاوي: اللغة والحجاج، تنضيد وإخراج: حسين طه، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د-ط، عام 2009م.